

محاضرات في النقد العربي القديم

أ. د/ عبد العليم بوفاتح - المدرسة العليا للأساتذة - الأغواط (2017 / 2018)

المحاضرة الثالثة : النقد عند العرب في الطور الشفهي

☆ ثانيا : النقد في صدر الإسلام (2)

توطئة : دور الرواة في نقل المادة الأدبية :

لقد تمّ جمع المادة الأدبية، ولا سيما الشعر في عصر ما قبل الإسلام، في العصور اللاحقة بدءاً من منتصف القرن الثاني للهجرة، عن طريق الرواة الذين تفرّغوا لرواية شعر العرب اعتماداً على الحافظة. قال "محمد بن سلام الجمحي": "وكان أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها، حماد الرواية (ت 155 هـ) . وكان غير موثوق به، كان ينحل شعر الرجل غيره، ويزيد في الأشعار"(1). واشتهر بجمعه أيضاً أبو عمرو بن العلاء، (ت 154هـ.) (2) وخلف الأحمر(ت 180 هـ) وأبو عبيدة (ت 209 هـ) ، والأصمعي(ت 216 هـ) ، والمفضل بن محمد الضبي الكوفي صاحب المفضليات(ت 178 هـ) (3).

وهؤلاء الرواة هم الذين نقلوا إلينا هذه المادة وكان اهتمامهم منصباً أكثر على الشعر وموضوعاته، ونجد رواياتهم متفكّة أو متقاربة أحياناً، كما نجد ما متباينة أحياناً أخرى. ولذلك فإنّ الأحكام النقدية التي نعثر عليها من مطالعتنا لهذه المصادر ليست في كل الأحوال أحكاماً ثابتة بما لا يدع مجالاً للشك فيها، بل قد نجد الكثير من هذه الأحكام النقدية مختلفة متضاربة في نسبتها إلى أصحابها وقائلها ، وهو الأمر ذاته الذي نجده في نسبة الشعر إلى غير قائله أحياناً، وهذه الظواهر كثيرة في النقد العربي القديم، يعثر عليها المتتبع لحركة النقد عبر العصور، فيما جاء من الروايات المتعددة في هذا الشأن.. وهو ما يتطلب منا التحقق والتحقيق للوقوف على ما يكون جديراً بالترجيح أو التصحيح .

الاهتمام بالشعر ونقده في عصر صدر الإسلام :

تواصلت مسيرة النقد في صدر الإسلام فقد في زمن البعثة الإسلامية، وكان ذلك بين يدي الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة والخلفاء الراشدين الذين استحسّنوا منه ما كان حسناً واستهجنوا ما كان مستهجناً.. ووجهوا وهذبوا وصحّحوا وعدّلوا وبدّلوا ، فكانت لهم إسهامات نابعة من أدواقهم ومن مراعاة موضوعات الشعر ومدى رقيه في معالجة القضايا ؛ فما كان منه يصب في خدمة الدين الإسلامي ونشره وبيان فضائله، وما كان منه معالجاً لموضوعات اجتماعية وإنسانية متصلة بتعاليم الدين... كل ما كان كذلك أقرّوه وشجعوه وحثّوا عليه وأثنوا على أصحابه. وما كان يعوزه التهذيب هذبوه ، وما كان بعيداً عن تعاليم الإسلام، وعن القيم العالية ردّوه.

لقد حظي الشعر على الخصوص باهتمام الصحابة والخلفاء الراشدين رضي الله عنهم ، فعن عكرمة، قال: ما سمعت ابن عباس يفسر آية من كتاب الله عز وجل إلّا نزع فيها بيتاً من الشعر، وكان يقول: " إذا أعياكم تفسير آية من كتاب الله فاطلبوه في الشعر، فإنه ديوان العرب، وبه حُفظت الأنساب، وعُرفت المآثر، ومنه تُعلمت اللغة، وهو حجة فيما أشكل من غريب كتاب الله وغريب حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحديث صحابته والتابعين"(4).

1- ابن سلام الجمحي ، طبقات الشعراء ، ص14

2- الجاحظ ، البيان والتبيين ، 321/1

3- طبقات الشعراء ، ص9

4- جلال الدين السيوطي ، المزهرة في علوم اللغة وأنواعها : 470/2

وعن ابن سيرين قال: قال عمر بن الخطاب: " كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه." وقال ان سلام الجمحي في الشعر الجاهلي: "وكان الشعر في الجاهلية ديوان علمهم ومنتهى حكمهم، به يأخذون، وإليه يصيرون." (5) وجاء عن ابن عباس قوله: "إذا سألتكم عن شيء من غريب القرآن، فالتمسوه في الشعر فإن الشعر ديوان العرب" (6) لقد كان الشعر في صدر الإسلام امتداداً لما كان عليه في العصر الجاهلي من حيث الشكل والإيقاع ، مع ما عرفته حركة الشعر من تهذيب وتغيير تأثراً برسالة الإسلام وتعاليمه وآدابه، مما أدى إلى بعض التنوع في موضوعاته.. ويتجلى ذلك التأثير فيما أبداه الصحابة والخلفاء الراشدون رضي الله عنهم من ملاحظات وتصويبات على المادة الشعرية في صدر الإسلام، وكان ذلك منصبا أكثر على المضامين، إذ عدلوا وبدلوا فردوا ما كان من هجاء لاذع أو فساد في الكلام، مما يتنافى مع تعاليم الإسلام السمحة، كما غيروا بعض الألفاظ والعبارات التي تحمل دلالات تتجاوز حدود الآداب والأخلاق الفاضلة..

موقف الإسلام من الشعر

أولاً/ الإسلام وشعر القيم والفضائل : نماذج مختارة :

ظل النقد الأدبي في هذا العصر يتميز بشيء من الاتساع والتطور، وبدا بعض التنوع في مجالاته وموضوعاته، وقد وجه الإسلام حركة الشعر نحو الموضوعات التي لا تتعارض مع تعاليمه ومبادئه السامية.. فقد أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يفضل بعضه، لما يتضمنه من المعاني السامية وما يحث عليه من الأخلاق العالية، وما فيه من الحكم البالغة، ومن ذلك ثناؤه على شعر طرفة وزهير وعنترة، لتمييزه بالقيم السامية والتعاليم التي جاء بها الإسلام الحنيف..

إن هذه الحوارات والانطباعات تضمنت كثيراً من الأحكام النقدية التي تبين موقف الإسلام من الشعر المتداول في تلك الفترة، ومثل هذه النماذج كثير في عصر صدر الإسلام، وهي تتضمن أحكاماً ذوقية تأثرت بعدة عوامل دينية وأدبية وأخلاقية، وهي مستمدة من تعاليم الإسلام ومبادئه السمحة، وقد أسهمت في توجيه مسار النقد وتحديد طابعه، خصوصاً في المضمون. موقف الإسلام من الشعر الجيد :

لقد حث الإسلام على الفضائل ورغب فيها، ونهى عن الرذائل وحذر من عواقبها.. ولا يخرج الشعر عن سائر القول في هذا الشأن. فالنبي صلى الله عليه وسلم قد سمع الشعر واستحسنه عندما وجده تنشر القيم الفاضلة ومكارم الأخلاق، كما هو الشأن في شعر زهير وطرفة وعنترة... وغيرهم ممن تضمنت قصائدهم مثل هذه القيم السامية التي جاء بها الإسلام..

1- أنموذج الشاعر المخضرم النابغة الجعدي : (7)

كان النبي صلى الله عليه وسلم يحاور الوافدين عليه من الذين اعتنقوا الإسلام، وفيهم الشعراء، فكان يقبل منهم بعضه ويرد بعضه ويوجههم إلى الصالح من القول فيه. ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يرفض الحديث عن الشعر ، بل كان يستحسن بعضه ويثني على أصحابه، ومنه ما أثر عنه من تعليق على أبيات النابغة الجعدي حين قال مادحاً رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام ومفتخراً بقومه الكرام :

5- طبقات الشعراء ، ص10

6- المزهر ، 302 /2 ، وينظر: شرح الحماسة ، للتبريزي ، 3/1.

7- هو قيس ، وقيل حسان ، بن عبد الله بن عُدس بن ربيعة الجعدي العامري من جنوب اليمن (توفي حوالي 50 هـ الموافق 670 م) ، بُكِنَى بأبي ليلي، ولُقِبَ بالنابغة لأنه أحجم عنه لمدة ثلاثين عاماً، ثم نبغ فيه لما جاء الإسلام. وقد عمّر طويلاً (قيل 120 عاماً ، وقيل أكثر) وكان من ندماء المنذر أبي النعمان، كما قيل إنه كان في الجاهلية يصوم ويهجر عبادة الأصنام، وله شعر في الجنة والنار والتوحيد. جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم على رأس وفد من قومه فأسلم وأنشده رائيته، فأعجب بها الرسول صلى الله عليه وسلم وأثنى عليه. ويستخلص من هذا أن النابغة الجعدي ولد قبل النابغة الذبياني(ت 604 هـ) الذي عاصر النعمان بن المنذر؛ وقد عاش الجعدي إلى الإسلام، كما أن لقب النابغة حازه الجعدي قبل الذبياني الذي لم يعمر طويلاً. علما أن هناك عدة نوابغ ، منهم: ذبيانيان، ومنهم: النابغة الجعدي، والعوانبي، والشيباني، والتغليبي، وغيرهم..

تبعث رسول الله إذ جاء بالهدى * * ويتلو كتابا كالمجرة نيرا

بلغنا السماء مجدنا وجدودنا * * وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: "أين المظهر يا أبا ليلى؟ فقال: الجنة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أجل إن شاء الله." ثم أتم أبياته في الحكمة قائلاً :

ولا خيرَ في حِلْمٍ إذا لم يكن له * * بوادٍ تحمي صفوه أن يُكْدراً

ولا خير في جهلٍ إذا لم يكن له * * حليمٌ إذا ما أورد الأمر أصدرًا

فلقد استحسنت منه النبي صلى الله عليه وسلم هذا القول، وقال: "أجدت.. لا يَفُضُّ اللهُ فاك." حثاً له على الاستمرار فيما كان جيداً من الشعر، وجودته الشعر ههنا تتمثل فيما يدعو إليه من القيم والأخلاق ونشر الفضيلة، وتشجيع المواقف الإنسانية النبيلة؛ وهذا يندرج في جانب المضمون الذي انطبع بطابع الدين الإسلامي وتعاليمه. إذ تأتي الصياغة تابعة للمضمون، تزيد في تبليغ الرسالة وترسيخ تعاليم الدين الحنيف.

2- أنموذج الشاعر المخضرم: كعب بن زهير : (8)

كعب شاعر مخضرم، ظل تحت رعاية أبيه زهير يعلمه الشهر ويوجهه إلى أحسنه، إلى أن جاء الإسلام، فكان موقفه معارضاً له وللدعوة المحمدية، فسرعان ما انقلب يهجو الإسلام المسلمين ويشهر بهم بين القبائل، فلما ذاع أمره وأخذ يؤذي المسلمين ويعتدي عليهم أهدر النبي صلى الله عليه وسلم دمه، ليكف خطره عن الإسلام والمسلمين. ولما بلغه الخبر احتفى بقبيلته لكنها لم تحمه بل تخلت عنه، فعاد إلى رشده واستحضر القيم التي نشأ عليها مع أبيه زهير من قبل، وإذا به يأتي إلى النبي صلى الله عليه وسلم معترفاً. ولما مثل بين يديه أراد بعض الصحابة أن ينتقموا منه فمنعهم النبي صلى الله عليه وسلم، وقبل اعتذاره، فألقى عليه قصيدته اللامية، فلما وصل إلى قوله:

إنَّ الرسولَ لنورٍ يستضاء به * * مهتدٌ من سيوفِ الله مسلولٍ

ألقى عليه النبي صلى الله عليه وسلم برده، فحملت هذه القصيدة فيما بعد اسم (البُرْدَة) ونالت كثيراً من العناية والاهتمام إنشاداً ودراسة وتحليلاً... وأما مطلع القصيدة فهو قول كعب:

بانت سعادُ فقلبي اليومَ متبولٌ * * متيمٌ إثرها لم يفدَ مكبولٌ

وما سعادُ عداةَ البينِ إذ رحلوا * * إلا أعنُّ غضيضَ الطرفِ مكحولٌ

هيفاءُ مقبلةٌ عجزاً مُدبرَةً * * لا يُشتكى قصرَ منها ولا طولُ

فقد بدأها بمقدمة غزلية، على عادة الشعراء في عصر ما قبل الإسلام، غد عرفت لديهم المقدمة الظلية والمقدمة الغزلية، قبل أن يلجوا موضوع القصيدة.. فبدأها بالغزل العفيف بذكر محبوبته، واثر رحيلها عنه، وما تركه عليه من لوعة الشوق والحنين. ثم يصل إلى قوله في الحكمة والاعتذار:

تسعى الوشاةُ جنابيهَا وقولهُمُ * * إنك يا ابن أبي سلمى لمقتولٌ

وقال كل خليلٍ كنتُ أمله * * لا ألهينك إني عنك مشغولٌ

فقلتُ خلوا سبيلي لا أبالكم * * فكل ما قدرَ الرحمنُ مفعولٌ

8- هو كعب بن زهير بن أبي سلمى، وزهير من أشهر شعراء عصر ما قبل الإسلام، اشتهر بشعر الحكمة، كما اشتهر بالحواليات، وهي قصائد كان يعبث بها في أربعة أشهر وينفحها في أربعة ويعرضها على مقربيه في أربعة، فإذا حال عليها الحول أخرجها إلى الناس، فسميت بحواليات زهير... وأما أبو زهير، وهو (أبو سلمى) فاسمُه (ربيعة بن رباح) وهو من بني مزينة.. فكعب عندئذ هو شاعر ابن شاعر، وقد كان الخليفة عمر رضي الله عنه معجباً بشعر أبيه زهير، فلا يفضل عليه أحداً..

كُلُّ ابْنِ أَنْثَى وَإِنْ طَالَتْ سَلَامَتُهُ * * يَوْمًا عَلَى آلَةِ حُدَبَاءَ مَحْمُولٌ
أُنْبِتْتُ أَنْ رَسُولَ اللَّهِ أُوْعَدَنِي * * وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ مَأْمُولٌ
مَهْلًا هَذَاكَ الَّذِي أَعْطَاكَ نَافِلَةً أَل * * قُرْآنَ فِيهَا مَوَاعِيظٌ وَتَفْضِيلٌ
لَا تَأْخُذْنِي بِأَقْوَالِ الْوُشَاةِ وَلَمْ * * أَذْنِبْ وَقَدْ كَثُرَتْ فِيَّ الْأَقَاوِيلُ

إلى أن يقول في مدح النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم:

إِنَّ الرَّسُولَ لَسَيْفٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ * * مُهَنْدٌ مِنْ سِيُوفِ اللَّهِ مَسْلُوكٌ
فِي فَتْيَةٍ مِنْ قَرِيشٍ قَالَ قَائِلُهُمْ * * بَبْطَنَ مَكَّةَ لَمَّا أَسْلَمُوا زُؤُلُوا
زَالُوا فَمَا زَالَ أَنْكَاسٌ وَلَا كَشْفٌ * * عِنْدَ اللَّقَاءِ وَلَا مَيْلٌ مَعَاذِيلُ
شَمُّ الْعِرَانِينَ أَبْطَالٌ لِيُوسُهُمْ * * مِنْ نَسِجِ دَاوُدَ فِي الْهَيْجَا سَرَابِيلُ
بِيضٌ سَوَابِغٌ قَدْ شَكَّتْ لَهَا حَلْقٌ * * كَأَنَّهَا حَلَقُ الْقَفْعَاءِ مَجْدُولُ
يَمِشُونَ مَشْيَ الْجَمَالِ الرَّهْرِ يَعِصْمُهُمْ * * ضَرْبٌ إِذَا غَرَدَ السُّودُ التَّنَابِيلُ
لَا يَفْرَحُونَ إِذَا نَالَتْ رِمَاحُهُمْ * * قَوْمًا وَلَيْسُوا مَجَازِيعًا إِذَا نَبِلُوا

لقد نالت هذه القصيدة من الاهتمام ما جعلها في مقدمة القصائد المتداولة بين الدارسين قديماً وحديثاً، كما استخلص منها النقاد عدة أحكام، منها أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يرد الشعر جملةً، بل إنه شجع على ما كان منه جيداً في موضوعه وهادفاً في مضمونه، كما أنه صلى الله عليه وسلم لم يرد من قصيدة كعب تلك الأبيات الغزلية التي دبح بها اعتذاره وجعلها في مقدمته، مع أن الاعتذار وطلب العفو هو الموضوع الرئيس الذي جاءت من أجله القصيدة، فقبلها النبي صلى الله عليه وسلم كما هي، ولم يعلق عليها إلا بالاستحسان جملةً..

إن المتتبع لهذه القصيدة الجميلة ليلحظ ما فيها من المعاني السامية التي تشيد بصفات النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وما يتحلون به من الشيم العالية.. وهذه الموضوعات، وإن كانت موجودة قبل هذا العصر، فهي في هذا العصر أخذت طابعاً إسلامياً واتصلت بتعاليم الدين الحنيف، فتضمنت دعوة إليه وحثاً على اعتناقه، حتى كانت سبباً في انضمام من تأثروا بها إلى صفوف المسلمين وأصبحوا من أنصارهم. وهذا ما جعلها تلقى الاستحسان من النبي صلى الله عليه وسلم، إذ عفا عن كعب وأثنى عليه وخلع عليه برده، وحث الصحابة رضي الله عنهم على الاستماع إليه وهو ينشدها. وهذا يعكس موقف النبي صلى الله عليه وسلم من الشعر الإيجابي، بحسب موضوعه ومضمونه وحسن صياغته..

3- أنموذج الشاعر الخضرم: حسان بن ثابت :

كان الخطباء والشعراء يلتقون في المواسم فيتبارون ويتنافسون ويتفاخرون فيما بينهم؛ وكان مما يميّز هذه المفارقات ما يكون بين خطباء المسلمين وشعرائهم في مواجهة تيار المشركين المعارض الذي يحاربون هذا الدين ويحاولون الإساءة إلى المسلمين وإيقاف مسيرة الإسلام والحد من انتشاره.. وكان من أبرز هؤلاء تلك المساجلات الشعرية بين شاعر المسلمين وشاعر الدعوة الإسلامية حسان بن ثابت الأنصاري، وشاعر وفود المشركين الزبيرقان بن بدر.. وكانت الغلبة لحسان في هذه المساجلات، إذ كان النبي صلى الله عليه وسلم يسانده ويحثه على التصدي لهم، ويقول له: " أهْجُهُمْ وَرُوحَ الْقُدْسِ مَعَكَ "

قال الزبيرقان بن بدر أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم، مفتخراً بقومه :

نحن الكرام فلا حي يعادلنا * * منا الملوك وفينا تنصب البيع
وكم قسرنا من الأحياء كلهم * * عند النهاب وفضل العز يتبع
ونحن نطعم عند القحط مطعمنا * * من الشواء إذا لم يؤنس القرع

بما ترى الناس تأتينا سراتهم * من كل أرض هويما ثم تصطنع
فنحدر الكوم عبطا في أرومتنا * للنازلين إذا ما أنزلوا شعبوا
فلا ترانا إلى حي نفاخرهم * إلا استفادوا فكانوا الرأس يقطع
فمن يفاخرنا في ذلك نعرفه * فيرجع القوم والأخبار تستمع
إنا أبينا ولا يأبى لنا أحد * إنا كذلك عند الفخر نرتفع

فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حسان ليصيب شاعر بني تميم، فحضر إليه، واستجاب لطلبه، وأخذ يقول راداً على الزبيرقان بن بدر:

إن الذوائب من فخر وأخوتهم * * قد بينوا سنة للناس تتبع
يرضى بهم كل من كانت سريرته * * تقوى الإله وبالأمر الذي شرعوا
قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم * * أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا
إن سابقوا الناس يوماً فاز سبقهم * * أو وازنوا أهل مجد بالندى متعوا
لا يبخلون على جار بفضلهم * * ولا يمسه من مطمطع طبع
لا يفخرون إذا نالوا عدوهم * * وإن أصيبوا فلا خور ولا هلع
خذ منهم ما أتى عفوا إذا غضبوا * * ولا يكن همك الأمر الذي منعوا
أكرم بقوم رسول الله شيعتهم * * إذا تفاوتت الأهواء والشيع

هذه مقتطفات مما قاله الشاعران وهما يتنافسان، فذاك ينافح عن قومه ويفتخر بشجاعتهم وكرمهم، وهذا ينافح عن رسالة الدين الحنيف والنهج السديد والأصل الشريف بإسناد من رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام وتأييد من الخبير العلام. فتفضيل شعر حسان جاء لما تضمنه من القيم والأخلاق، وما تميز به من حسن الصياغة التي زادت هذه القيم تثبيتها وترسيخاً. وقد جاءت الأبيات على نفس الإيقاع والقافية والروي، كما أن التفاخر تقع فيه مقابلات بين الصفات والمناقب التي يتبادلها الشعراء فيما بينهم، ذلك أن كلاً منهما يريد أن يبطل أو يقلل من قول خصمه، ثم يثبت الأفضل من جهته، ليحقق الانتصار على خصمه. وقد كان حسان كثير الظهور على خصومه الذين هم خصوم الإسلام والدعوة المحمدية..

وكان من روافد حسان أنه كان يعود إلى الخليفة أبي بكر الصديق رضي الله عنه ليمدّه بكثير من الأخبار عن المشركين، ذلك أن أبا بكر رضي الله عنه كان من أعلم العرب بالأنساب، فكان حسان يجد لديه ما يفاجئهم به في كل مرة، فضلاً عن براعة حسان في صياغة الشعر وحسن بلائه فيه، حتى إن المشركين كانوا يقولون عن النبي صلى الله عليه وسلم: " إن هذا الرجل لمؤتّى له، فخطيبه أخطب من خطيبنا وشاعره أشعر من شعرائنا، وأصواتهم أعلى من أصواتنا ". وهذا اعتراف منهم بانتصار خطباء المسلمين وشعرائهم عليهم؛ ومثل هذا الكلام يتضمّن حكماً نقدياً وانطباعاً مبنياً على ما تمّ سماعه من شعر وخطب أرقى مما كان لدى المشركين، حتى كانت تلك المفاضلة من الدوافع إلى اعتناق الإسلام..

لقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يستحسن من الشعر ما يوافق مكارم الأخلاق ويحث على نشر الفضيلة، ويستهجّن ما كان منه منافياً لهذه المكارم الفضائل، ومن هذا نستخلص أنّ معايير النقد في هذا العصر كانت دينية في المقام الأول. وكثيراً ما كان الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته رضي الله عنهم يسمعون الجيد من الشعر فيشجعون على قوله ويحثون عليه ويثنون على قائله، ويسمعون ما يحتاج منه إلى تهذيب فيهدّبونه بتغيير في بعض ألفاظه وصياغته أو توجيه بعض معانيه.. وكان من الشعراء الذين برزوا في هذا الشأن حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك، وغيرهم.. وبقي النقد على طابعه الفطري الانطباعي بلا تعليل، بل ظل قائماً على المفاضلة بين الشعراء والخطباء، ذلك أنّ الغاية التي كان

الشعر والخطابة مسخرين لها كانت حمل رسالة الإسلام ونشر تعاليمه، فكان لزاماً أن تتسم النصوص بهذا الطابع الديني القائم على نشر الفضائل والقيم الأخلاقية، ونبذ الرذائل وما حاد منها على الجادة..

ثانياً/ الإسلام وشعر الهجاء : نماذج مختارة :

أمثلة الشاعر المخضرم : الحطيئة (9) :

كان للصحابة للخلفاء الراشدين رضي الله عنهم دور بارز وحضور معلوم في حركة النقد الأدبي، وكان لهم أثر جلي في توجيهها الوجهة الصحيحة، بحيث لا تخرج عن الآداب والتعاليم السامية التي جاء بها الدين الإسلامي الحنيف.. وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه من أكثر الخلفاء التفاتاً إلى النقد الأدبي، والدافع إلى ذلك أنه كان رضي الله عنه عالماً بالشعر ذا مطلعاً عليه ذا باع طويل فيه ؛ وقد تحدث يوماً مع وفد غطفان فقال أي شعرائكم الذي يقول:

أيتيك عارياً خلقاً ثيابي * * على خوف تظن به الظنون

قالوا: النابغة فقال لهم أي شعرائكم الذي يقول:

حلفت فلم أترك لنفسي ريبة * * وليس وراء الله للمرء مذهب

قالوا: النابغة فقال لهم أي شعرائكم الذي يقول:

فإنك كالليل الذي هو مدركي * * وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

قالوا: النابغة قال : هذا أشعر شعرائكم. فالنابغة في رأي عمر - انطلاقاً من هذا الرأي له - هو أشعر غطفان وذبيان، وأشعر من امرئ القيس وعنترة وعروة بن الورد، وغيرهم... وروي أنّ ابن عباس رضي الله عنه قال: قال لي عمر ليلة في غزوة غزاه : هل تعرف من هو أشعر الشعراء ؟ فقلت: من هو؟ قال الذي يقول:

ولو أن حمداً يخلد الناس أخذوا * * ولكن حمد الناس ليس بمخلد

قلت: زهير ؛ فقال: هو أشعر الشعراء، لأنه لا يعاقل في الكلام، ولا يمدح أحداً إلا بما فيه.

ما كان عمر رضي الله عنه بسؤاله لابن عباس يريد معرفة أشعر الشعراء ، ولكنه أراد إقرار أمرٍ في نفسه، نابع من إعجابه بشعر زهير، والمعلوم أن زهيراً قد اشتهر بشعر الحكمة ؛ فهذا يبين لنا النهج النقدي العام في صدر الإسلام ، ألا وهو الجنوح إلى ما كان من الشعر راقياً في موضوعاته ومضامينه ومراميه.. كما يتضح لنا من جانب آخر أن النقد الأدبي في هذه الفترة ظل كما كان في الجاهلية مرتبطاً بالذوق والانطباعات الحسية. ويتغير بتغير الزمان والظروف..

وكانت تلك الأحكام النقدية والانطباعات لدى الخلفاء تفاضل بين أنواع الشعر، فلا مكان لشعر الهجاء والقدح والظلم والتعدي لحدود الآداب واللياقة.. ومن ذلك ، مثلاً ما كان بين الخليفة عمر رضي الله عنه والشاعر الحطيئة حين هجا الزبير بن بدر، وهو أحد وجهاء بني تميم وفرسانها وساداتها وهو من المخضرمين ، والمؤلفة قلوبهم ، فلقد هجاه الحطيئة بجملة أبيات منها قوله :

9- " الحطيئة "، من أشهر شعراء الجاهلية عرف بهجائه لكل من عرفه حتى هجا أمه وأباه ونفسه . واسمه : "جرول بن أوس العبيسي، كنيته "أبو مليكة" نسبة لمليكة ابنته. وهو شاعر مخضرم عاش في العصر الجاهلي والإسلامي، وتوفي في منتصف القرن 2 هـ. عاش بين بني "عبس" وكان محروماً من الأهل والسند، وظلم بين قومه، ولم يسلم أحد من لسانه السليط وهجائه الصليبت. أما سبب تسمية الحطيئة بهذا الاسم فيعود إلى هيئته الجسدية، إذ كان قصير القامة قريباً من الأرض، وكان جسمه ضئيل الحجم صغيراً. وكان يعاني من قبح وجهه ومنظره. وقد رأى الكثير من العلماء أنّ مظهره هذا كان سبباً في عقده النفسية التي دفعته إلى هجاء كل من حوله لتعويض النقص الذي كان يشعر به. وقد عرف الحطيئة بفساد دينه ؛ إذ أسلم وارتد في عهد أبي بكر الصديق وعاد لإسلامه بعد ذلك.

دع المكارم لا ترحل لبغيتها * * واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي (10)

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه * * لا يذهب العرف بين الله والناس

فعندما علم الزبيرقان بن بدر بهجاء الحطيئة له ، استعدى عليه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فرفعه عمر إليه واستنشدته فأنشدته فحبسه عمر.. وفي رواية أخرى، قال عمر للزبيرقان: ما أسمع هجاء ولكنها معاتبية، فقال الزبيرقان: أو ما تبلغ مروعتي إلا أن آكل وألبس؟ فقال عمر: علي بحسان ، فجيء به فسأله ، فقال حسان: لم يهجه يا أمير المؤمنين، ولكنه سلح عليه سلحا (11) ، فأمر به عمر فجعل في بئر ثم ألقى عليه شيء ، فقال:

ماذا تقول لأفراخ بذي مرخ * * زغب الحواصل لا ماء ولا شجر (12)

ألقيت كاسبهم في قعر مظلمة * * فاغفر عليك سلام الله يا عمر (13)

أنت الإمام الذي من بعد صاحبه * * ألقى إليك مقاليد النهي البشر

لم يوثروك بها إذ قدموك لها * * لكن لأنفسهم كانت بك الأثر (14)

فأطلق الخليفة عمر رضي الله عنه سراحه وأخرجه من تلك البئر رافة بأولاده، وقيل إنه بكى لهذه الأبيات، ثم قال له: إياك وهجاء الناس، فقال الحطيئة: إذا يموت عيالي جوعاً، هذا مكسبي ومنه معاشي، قال: إياك والمقذع من القول، فقال: وما المقذع؟ قال: أن تخاير بين الناس فتقول فلان خير من فلان، وآل فلان خير من آل فلان، قال: فأنت والله أهجى مني. ثم قال عمر: والله لولا أن تكون سنة لقطعة لسانك، ولكن اذهب فأنت له، خذ يا زبيرقان فهو لك ؛ فألقى الزبيرقان عمامته على رقبة الحطيئة واقتاده بها فعارضته غطفان وقالت: هبنا لنا ، فنحن إختوك وبنو عمك. واستوهبوه منه فوهبه لهم..

وجاء في رواية أخرى أن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه اشترى منه أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم وفي رواية، وهو ما أورده كتاب فوات الوفيات لمحمد الكتبي. ولا ريب أن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ما منحه تلك الدراهم إلا رافة بحاله ورحمة بأولاده الذين عانوا في فترة سجن والدهم (الحطيئة). وهذا من مواقف عمر المشهودة، فقد أثر عنه كثير من مواقف الرفق والعطف مع الصغار، ويروي لنا التاريخ أروع الأمثلة التي كان الفاروق يفيض فيها رقة وحناناً تجاه الصغار والضعفاء والمحتاجين، ويسارع إلى نجدتهم..

غير أن الحطيئة لم ينقطع عن الهجاء حتى آخر حياته، ولم يتورع عن هجاء أبيه وأمه وحتى نفسه، فقد أقض مضاجع أهل الديار والأحياء التي يحل بها، وظل لسانه سليطاً عليهم.. فكان الناس يخشون هجاءه ويظهرون له الاحترام ويقدمون له المال والخدمات اتقاء له.. ولم يسلموا منه إلا بوفاته. (15).

* يقول الحطيئة في هجاء أمه :

10- من بديع قوله احتمال البيت الأول للمدح والذم في آن واحد، فوجه المدح على أن المخاطب أهل لأن يرتاح ويأتيه من يطعمه ويكسوه، فلا يكلف نفسه شيئاً من العناء، وهذا بحمل صيغة الفاعل على ظاهرها... وأما على وجه الذم – وهو المراد طبعاً – فذلك أنه عاجز عن أن يأتي بقوته، فهو مُطعمٌ مكسُوٌّ (بصيغة اسم المفعول) وإن جاء اللفظ بصيغة اسم الفاعل.. غير أن سياق الحال يغني هنا عن اللفظ والمقال..

11- سلح عليه : ألقى عليه الأقدار (كناية عن شدة الهجاء والسب والشتم).
12- بذي مرخ : أي بوادٍ بنجد من ديار غطفان ؛ وقد شبه الشاعر هنا أبناءه الصغار ، بأفراخ العصافير الصغيرة التي لا تزال في بداية نموها، وقوله (زغب الحواصل) دليل على ذلك ؛ والحوصلة : المعدة ، وقد أشار الشاعر هنا إلى معدة أبنائه الصغار كناية عن عجزهم وحاجتهم إليه لإطعامهم، كالمطائر الذي يخرج لطلب القوت لصغاره ، فتأمل هذه البراعة في استعطاف الخليفة واسترحامه وإثارة شفقتة على أولاده، بعدما عرف شدته صرامته نحوه، على ما كان من هجائه وتعديه..

13- كاسبهم (وفي رواية : كاسيهم) : هو الشاعر ؛ في قعر مظلمة : قرينة تدل على صحة رواية حبسه في البئر .

14- الأثر: في نهاية البيت (يُراد بها : الأثره : أي التفضيل ، وانتقلت ضمة التاء إلى الراء قبلها، فقال: الأثر، لاستقامة الإيقاع ، وهذا من جميل الإبداع)

15- اختلف في سنة وفاته ، بين سنة: 30 هـ ؛ وسنة: 54 هـ ؛ وسنة: 69 هـ ؛ ويبدو أن الأرجح هو سنة : 54 هـ .. (ينظر : تاريخ التراث العربي (مج2، ج2: العصر الجاهلي) لفؤاد سزكين : نقله إلى العربية : د. محمود فهمي حجازي، ص223).

تنحني فاقعدي مني بعيداً * * أراح الله منك العالمينا
ألم أوضح لك البغضاء مني * * ولكن لا أخالك تعقلينا
أغريباً إذا استودعت سرّاً * * وكانونا على المتحدثينا
جزاك الله شراً من عجوز * * ولقائك العقوق من البنينا
حياتك ما علمت حياة سوء * * وموتك قد يسر الصالحينا

* ويقول في هجاء أبيه :

لحاك الله ثم لحاك حقاً * * أباً ولحاك من عمّ وخال
فنعم الشيخ أنت لدى المخازي * * ويئس الشيخ أنت لدى المعالي
جمعت اللؤم لا حياك ربي * * وأبواب السفاهة والضلال

* ثم يقول في هجاء نفسه :

أبت شفتاي اليوم إلا تكلماً * * بسوءٍ فما أدري لمن أنا قائله
أرى لي وجهاً شوّه الله خلقه * * فقُبِحَ من وجهه وقُبِحَ حامله

أدرك الحطيئة أنه لن يكون له شأن إلا بشيء لا يكون عند غيره، ألا وهو الشعر ؛ وشيء لا يكون كذلك عند الشعراء بتلك الدرجة ألا وهو الهجاء... فالشعراء كانوا فرساناً، وكانوا ينتمون إلى قبائل معروفة يعتزون بالانتماء إليها ويفخرون بفروسيتهم وشجاعتهم وبأسهم.. أما هو فهمه في قصره وقبح وجهه وسوء حظه بين الناس..

هكذا بنيت شخصية هذا الشاعر فعاش ساخطاً على زمنه الذي عاش فيه، وعلى نسبه المشتت، وعلى قبح صورته من جهة أخرى؛ فكل هذا المزيج تشكلت منه شخصيته الغريبة، إذ لم يستطع التخلص من هذه النفس وأطوارها إلى أن رحل..

لقد كان الحطيئة يدرك أنه لن يبلغ ما يريد بلوغه إلا بالهجاء، لأنه برع فيه أكثر من غيره من الموضوعات، فجاء تمسكه به شديداً إلى حد أنه ما كان يتوقع أن يحيد عنه، لأن منه يسترزق وبه يقتات، وعليه يعتمد في حماية نفسه وبلوغ المكانة التي أرادها في زمانه.. وقد صرح بذلك للخليفة عمر عندما آخذه وعاقبه على هجائه..

أبرز خصائص النقد في هذا العصر :

- كان النقد امتداداً لعصر ما قبل الإسلام من حيث الجانب الانطباعي التأثري.
- الاعتماد على الفطرة والسليقة والذوق الذاتي في إصدار الأحكام النقدية.
- تشجيع مذهب الصدق ونشر الفضائل، ونبذ الخصومات، ومحاربة الرذائل.
- ظل المنطلق النقدي الغالب هو الاعتبارات الذوقية الذاتية .
- التعبير عن الاستحسان أو الاستهجان مع قلة التعليل النقدي.
- التأثر بالبيئة الدينية الجديدة بمجيء الإسلام.
- الارتكاز في الغالب على معيار القيم والمبادئ الإسلامية.
- ساير النقد بعض التغيير والتنوع في الموضوعات والمضامين التي تتلاءم مع البيئة والمجتمع وتعاليم الدين.
- التركيز على شعر المدح وشعر الهجاء أكثر من سائر الأغراض الأخرى.
- اندرج النقد ضمن مبادئ الإسلام وتعاليمه وآدابه التي جاء بها، فأخذ طابع الدعوة.
- الجنوح نحو الوضوح وجودة الصياغة لما لها من أثر في إيصال المعنى.
- عقد المقارنات والموازنات بين الشعراء والقصائد .

نستخلص في الختام أنّ الشعر في عصر صدر الإسلام لم يعرف كثيراً من الأغراض، وإنما تركّز على غرضي المدح والهجاء، فالمدح كان بحُكم مجيء الإسلام الذي حث على نشر الفضائل ونبذ الرذائل، فكان الشعراء يمدحون من يتحلون بهذه الفضائل، كما كانوا يوجهون قصائدهم إلى مدح النبي الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، وإلى صحابته الكرام. ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم قد كانت له مواقف مشهودة مع الشعراء الذين استقام شعرهم، فعفا عن بعضهم وحث بعضهم على مواصلة الشعر على نهج مكارم الأخلاق.. وكذلك فعل الخلفاء والصحابة رضي الله عنهم بعده.. وهناك نماذج كثيرة لمواقف الخلفاء من الشعر في هذا العصر، وقد اقتصرنا هنا على بعض النماذج التي كثر تداولها في المصادر التي تناولت هذا الموضوع . ونستطيع من هذه النماذج أن نتبين طبيعة النشاط الأدبي وما كانت عليه الحركة النقدية في ذلك العصر.. ويمكن القول عموماً أن النشاط النقدي كان قائماً على توجيه الأدب الوجهة الاجتماعية الصحيحة، باستحضار الإصلاح ونشر القيم السامية..

وإذا نظرنا إلى الأغراض الأخرى وجدناها أقل انتشاراً واحتفاءً من الشعراء، لأن البيئة بكل أبعادها هي المؤثر المباشر في توجيه الشعراء وظهور موضوعات الشعر.. وما يمكن ملاحظته من بعض التجديد إنما يكمن في المضامين التي تطورت عما كانت عليه في عصر ما قبل الإسلام، وذلك لتغيّر الحياة ومجيء الإسلام الذي أضفى على الحياة الأدبية طابعه المتميز، فكان لزاماً على النشاط النقدي أن يساير هذه المؤثرات كلّها، كما أشرنا في الصفحات السابقة..

أ.د/ عبد العليم بوفاتح
